اختبار الرسم الحر

أ.بوصفصاف زبير

مقدمة

يعتبر الرسم من اهم الوسائل التي تستعمل في الفحص النفسي مع الطفل نظرا لحبه له و بالتالي فالرسم يمثل لغة عالمية (حسب تعبير Royer) ترتبط بالسياق الاجتماعي و الثقافي الذي يظهر فيه حيث انه يسمح بالتعبير عن شخصية المفحوص و كذلك المجتمع الذي يعيش فيه كما تلخصه Pruvôt (2005، ص24) "...اذا اردت ان تعرف على بلد معين ، دع اطفاله يرسمون و استمع الى ما يقولون لك ". لقد اهتم العديد من المختصين بالرسم نذكر منهم على سبيل المثال Luquet الذي نشر كتابا سنة 1927 بعنوان "« Le dessin enfantin " او الرسم الطفولي ، هذا الكتاب الذي اعتبره المحلل النفسي Widlocher كمرجع اساسي لكل بحث حول الرسم عند الطفل. كما استعملت Dolto الرسم الحر في العلاج التحليلي مع الطفل . بالأضافة الى ذلك نشر Widlocher كتابا بعنوان " L'interprétation des dessins d'enfants" او تأويل او تفسير رسومات الأطفال و الذي عرض فيه مقاربة تحليلية لرسم الطفل و اقترح ثلاثة ابعاد للرسم : البعد السردي و الذي يسمح للطفل بالتعبير عن اهتماماته و اشكاليته و البعد التعبيري من خلال كيفية تناول الطفل للورقة و استعماله للألوان و الأشكال و البعد الأسقاطي الذي يشمل مستويين : يتناول المستوى الأول اسقاط الطفل لتصوراته و تمثيلاته اما المستوى الثاني فيشمل اسقاط العناصر اللاشعورية المكبوتة .

كل هذه الأبعاد تجعل من الرسم بصفة عامة و الرسم الحر بصفة خاصة الأداة المهمة التي يلجا اليها المختص النفسي في الفحص النفسي و العلاج النفسي كذلك و هذا ما يعبر عنه Widlocher (1990 ، ص9) بقوله " ان مشاهدة الطفل يرسم و الإصغاء الى تعاليقه ، يسمح لنا بالولوج الى حقل من الأرتبطات التداعية و الدلالية و العاطفية ، التي لا ندركها إلا نادرا من خلال حوار بسيط".

1-مراحل الرسم عند الطفل

يعتبر Luquet من اول الباحثين الذين اقترحوا مراحل لنمو و تطور الرسم عند الطفل و هي مراحل اساسية:

تطرق Luquet (Caroff André و اخرون 1971) الى مصطلحين اساسين و هما الواقعية و العالم الداخلي. تشير الواقعية في رسم الطفل الى موضوع رسمه حيث انه يهدف الى التعبير عن شيء واقعي، أي انه يعبر عن شيء معين و الذي يظهر من خلال قصد الطفل من الرسم. فيما يخص العالم الداخلي فيشير الى التصور او التمثيل العقلي الذي يتوفر عليه الطفل و الذي يعبر عنه من خلال الرسم ،الذي لا

يشبه بالضرورة الموضوع الخارجي. كما يؤكد Luquet على اهمية و سيطرة العالم الداخلي و الذي يظهر في الرسم.

- مرحلة الواقعية العرضية (3سنوات بالتقريب)

و تعبر هذه المرحلة عن بداية ظهور الرسم القصدي عند الطفل. يقوم الطفل برسم خطوط بصورة ارادية او عن طريق التقليد بدون ان يعطي معنى لخربشته و بعد ذلك يلاحظ الطفل تشابه بين ما رسمه و بين شيء او موضوع خارجي و يعطيه اسمه و يحاول ان يجعل من رسمه تشابها كبيرا مع الشئ من خلال بعض التفاصيل (القصد).

- مرحلة الافتقار الى الواقعية (4 الى 5 سنوات)

في هذه المرحلة تفشل محاولات الطفل الى جعل رسمه مشابها للواقع نظرا لافتقاره للمهارات اليدوية و الأنسجام و التناسق بين مختلف الأعضاء التي تلعب دورا مهما في عملية الرسم.تطرق Luquet خاصة الى غياب الانتباه حيث ان الطفل لا ينتبه الى العناصر التي يرسمها و العناصر التي يجب ان تكون. كما ان تأويله يختلف من وقت الى اخر كما ان عناصر الفضاء غير متحكم فيها (العناصر ملتصقة او موضوع جانب الى جنب)

- الواقعية الذكائية

تظهر هذه المرحلة في حوالي 5 سنوات و تمتد الى 9 سن من عمر الطفل. يرسم هذا الأخير انطلاقا من مما يعرفه عن الشيء (تصوره و تمثيله له) و ليس من خلال ما يراه. انه يتغاضى عن عناصر ظاهرة و يعتبرها غير مهمة كما يرسم تفاصيل غير ظاهرة و يعتبرها مهمة. ان ما يميز رسم الطفل في هذه المرحلة ما يريد رسمه و تمثيله و الذي يظهر من خلال استعماله لمجموعة من التقنيات مثل لجوءه الى الشفافية أي انه يرسم شيء حتى و لو كان مختفيا مثلا يرسم منزلا و الأسرة بداخله او إسقاط الشكل حيث يرسم الطفل مختلف عناصر رسمه بصورة متماثلة : من الأمام و في نفس المحور و بدون أفق و بالإضافة الى عدم تناسب الحجم كما يمكنه استعمال الألوان .

- الواقعية البصرية

تظهر هذه المرحلة بصفة عامة ما بين 9 الى 11 سنة حيث يعتمد الطفل على قدرته البصرية في الرسم أي انه يرسم انطلاقا ما يراه . يقول Luquet ان الرسم يفقد خصوصيته الطفولية و يشبه وضعية الراشد.

تعرض كتاب Luquet الى انتقادات كبيرة خاصة فيما يتعلق العالم الداخلي و تفسيراته السطحية (فيما يتعلق خاصة بالواقعية) و استعماله لمصطلحات غير مناسبة..الخ حيث يقول Widlocher انه تأثر بأفكار نظرية خاطئة.

2- تعريف الرسم الحر

يتمثل الرسم بصفة عامة في" ... الحصول عن المعنى باستعمال الخط ، اي باستعمال اشارات اخرى او عن طريق الصور ما يصعب التعبير عنه باستعمال الكلمات"(Wallon و Cambier و Engelhart (1990، ص 18). اذن الرسم كلغة يسمح للمفحوص بالتعبير عن تصوراته و عواطفه و انفعالاته بالإضافة الى صراعاته. و منه يتمتع الرسم هنا بنفس مكانة التعبير اللفظي خاصة اذا تم انجازه بصورة تلقائية و بدون تعليمة تحدد موضوع الرسم و بدون مراقبة للطفل او توقع نتيجة معينة و هذا ما يطلق عليه بالرسم الحر. يضيف Cognet و Cognet (2023) ان الرسم الحر (بدون تعليمة مقننة و واضحة حول اختيار الموضوع)) يسمح للطفل بالتمتع بحرية نسبية (اختيار موضوع الرسم و الأدوات ...الخ) لأنه مرتبط بالسياق الذي ظهر فيه. للتذكير يجب التمييز بين الرسم الحر الذي يكون نتيجة طلب المختص النفسي و بين الرسم التلقائي الذي ينجزه لما يرغب في ذلك و دون طلب من اي كان.

تميز Vinay (2020) 3 مميزات للرسم الحر:

- يعبر عن ذات المفحوص و التي تظهر من خلال حالته الانفعالية و العاطفية خاصة خلال عملية الرسم.

-يحمل الرسم الحر قيمة اتصالية حيث يخبرنا عن قصة المفحوص و عناصر تاريخه.

-يسقط المفحوص من خلال الرسم صراعاته و اشكاليته و عناصر شخصيته.

3-استعمالات الرسم الحر في المقابلة العيادية

يلجا المختص النفسي الى الرسم الحر في المقابلة العيادية مع الاطفال و المراهقين لتحقيق مجموعة من الأهداف يغلب عليها التقييم النفسي لشخصيته. و منه فان اقتراح الرسم الحر خاصة في المقابلة الأولى يعتبر اداة مهمة له لأنها كما يقول Vinay (2020) تعبر عن شكل ابداعي يتطرق اليها المفحوص و يجب على المختص اعطاءها كل الأهمية خاصة و انها تساهم أيضا في بناء و تعزيز العلاقة بين الطرفين. كما يستعمل الرسم بصورة خاصة في العلاج النفسي مع الأطفال و المراهقين كما عبرت عنه Dolto (1948، ص 324) " كم من مرة حدثت معي، بعد عدة اشهر من شفاء الطفل و اكتشف تدريجيا و من حصة الى اخرى ....و اعادة تفحص الرسم الأول الذي قام به الطفل و بعد تعرفي على كل تفاصيل الحالة أن كل شيء كان ان يفهم انطلاقا من الرسم الأول. كل شيء كان هناك لمن استطاع الاضطلاع عليه".

1-3 التعليمة

تختلف التعليمة من مختص نفسي الى اخر. بالنسبة الى Dolto التعليمة تكون كمايلي " ارسم لي رسما جميلا: ارسم كل ما تريد، اي شيء. ليس رسم المدرسة، انجز رسما تسعد بالقيام به"

و منى جهته قدم Erny في دراسته حول الرسم التعليمة التالية " انجز رسما جميلا، يمكنك رسم كل ما تريد"

تهدف التعليمتين الى تشجيع الطفل على انجاز رسم بدون موضوع محدد مع التركيز على جماليته و رغبة الطفل في القيام به. من جهته اعتبر (2024) ان صياغة التعليمة يجب ان تكون غير موجهة تماما مثل " من فضلك ارسم اي شيء" .

للتذكير لضمان السير الحسن للرسم الحر، يجب ان يكون مكتب المختص النفسي من الرسومات التي تزين المكتب و هذا لتفادي ان يعتمد الطفل عليها.

4- تحليل و تفسير الرسم

اقترح الباحثون مجموعة من المعايير في محاولة لتفسير رسم المفحوص و من بينهم :

1-4 Widlocher

يرى هذا المحلل النفساني (2002) ان الرسم يشبه الى حد بعيد الحلم و لتحليله يجب تفادي الاعتماد فقط على رمزية العناصر و الأشياء (تتطلب مهارة كبيرة) و كأن المختص النفسي يمتلك رموز او المفاتيح السرية لهذا الرسم و لكنه يقترح منهجية تعتمد على النقاط التالية:

-سلوك و خطاب و تعابير الطفل خلال عملية الرسم و بعدها.

-طبيعة العلاقة بين المختص النفسي و الطفل (ماذا يمثل المختص النفسي بالنسبة للطفل...الخ).

-السياق الذي تم فيه الطفل (حضور الوالدين او غيابهما).

-مضمون الرسم و العلاقة بين كل العناصر المرسومة.

-نمط و اسلوب رسم المفحوص من طبيعة الخط و شكل الأشياء المرسومة و استعمال الألوان...الخ

-اجراء محادثة مع المفحوص حول رسمه بهدف التعرف على تصوره له.

2-4 طريقة Royer

وضعت Royer طريقة لتحليل الرسم تشمل العناصر التالية:

-قراءة اولية حدسية لرسم الطفل في محاولة لمعرفة كل ما يحمله الرسم من احاسيس و الانفعالات.

-القراء المعيارية و هنا يهتم المختص النفسي بطريقة انجاز الرسم و التركيز على هذا الطفل مقارنة بالأطفال من نفس السن : هل رسم الطفل يشبه رسم الأطفال من نفس سنه؟ هل هناك اختلاف...الخ

-القراء التحليلية و فيها يقوم المختص النفسي بتحليل دقيق لرسم الطفل من خلال التعرف على خصوصيته و مميزاته .

3-4 طريقةDolto

تطرقت Dolto (ذكر Cognet و Cognet (2023) بإسهاب الى رسم الطفل الحر و اعتبرته اداة مهمة في الكشف عن عناصر شخصيته و خاصة صراعاته. و لتحقيق ذلك تؤكد على ضرورة تجنب المختص النفسي فرض معنى معين على الرسم و إجراء مقابلة مع الطفل لتوضيح ما رسمه. كما انها اقترحت قواعد تساعد في فهم الرسم :

خصائص الرسم

يتطرق المختص الى الدراسة الشكلية للرسم من خلال خاصة:

-توفر الرسم على قاعدة واضحة .

-تم الرسم على على نفس المحور او محاور مختلفة.

-وجود اطار للرسم .

- حجم الرسم مقارنة بالورقة.

موضوع الرسم

و يتعلق الامر هنا بمضمون الرسم :

-هل رسم المفحوص اشخاص او لم يتم رسمهم تماما

هل رسم حيوانات و اشجار او ازهار ...الخ

-الخط و الألوان

يهتم المختص بتحليل طبيعة الخط والألوان التي استعملهما المفحوص:

هل الخط الذي رسم به الطفل خفيف ام خشن؟

هل الألوان المستعملة زاهية او قاتمة ..الخ؟

4-4 طريقة Jumel (2015)

اقترح هذا المحلل النفسي مقاربة تهدف الى تحليل رسم الطفل كتحليل نص فلسفي حيث يلعب المختص النفسي دورا مهما فيه و تشمل المراحل التالية:

تسجيل الملاحظات

يقوم المختص النفسي بتسجيل كل الملاحظات حول سيرورة رسم الطفل دون ان يتدخل او يؤثر بطريقة او بأخرى على نشاطه. تتضمن الملاحظات نوعين رئيسين:

- الملاحظات الخاصة بحركات الرسم و تشمل اختيار اليد التي ترسم، كيفية استعماله للورقة و فضاءها و الاقلام

- مضمون الرسم أي ماذا رسم اولا و طبيعة الخط و اتجاهه ثم بعد ذلك العنصر الذي تلاه و هل استعمل المفحوص الألوان...الخ

-هل يرسم الطفل نحو اتجاه معين و هل يحافظ على هذا الاتجاه خلال كل العملية او يظهر تغيير فيه.

-التعليقات و تتمثل في ملاحظات المختص النفسي حيث يسجل الحالة النفسية للمفحوص و كذلك احاسيس المختص النفسي.

كما يهتم المختص النفسي بعين الاعتبار بالنقاط التالية:

-الوقت المستغرق في انجاز الرسم.

-التعرف على فترات التوقف و التردد و التفكير لأنها تخبرنا عن السيرورات النفسية الداخلية.

-ظهور أي تغير في طبيعة الخط الذي يستعمله المفحوص لأنه مرتبط بالحالة الانفعالية للمفحوص.

- الوصف الدقيق لتتابع حركة الخط حيث يسمح بالتعرف على العلاقة بين مختلف مكونات الرسم و اقتراح الفرضيات المناسبة بعد ذلك.

مثال توضيحي :

الملاحظات	التعاليق
1-تم مسك الورقة بصورة عرضية	- في غالب الأحيان الأطفال يستعملون الورقة كما تقدم لهم.
2-تناولت قلم اسود، رسمت دائرة حيث اضافت عناصر الوجه من عينين و فم و انف و شعر.	-استعمال اللون الأسود يظهر الخطوط بصورة واضحة رسم الوجه في المنتصف بصورة متناسبة جدا مع الورقة و كان ابعاد الورقة تم استدخالها عقليا.

3-واصلت بنفس الحركة و رسمت دائرة ثانية، - رسمت الدوائر في اتجاه المعاكس للساعة. تم رسم البطن، ثم بعد ذلك خطين وصلا حتى حافة الورقة. بخط واحد ، لم ترسم اليدين و القدمين. رسم الساقين

رسمت خطوط للتعبير عن الذراعين انطلاقا حتى حافة الورقة لا يتوافق مع وضعية الوجه.

من الرقبة.

يواصل المختص النفسي سيرورة مرافقته لرسم الطفل حتى ينتهي هذا الأخير . بعد ذلك يقوم بجمع كل الملاحظات المرتبطة بكل مراحل الرسم ثم بعد ذلك يبحث عن كل تغيير في طريقة الرسم و شكله. يتم تحليل الرسم كذلك بالعودة الى كيفية انجاز العناصر المرسومة و مدى توافقها مع سن الطفل.

و في النهاية يقوم المختص النفسي بإعطاء معنى لرسم خاصة المضمونه و كيفية انجازه. يبحث المختص عن العلاقة بين كل العناصر المرسومة و يقترح فرضيات نفسية و نفسو-مرضية.

5-4 طريقة Cognet و Cognet-Kayem (2023)

تطرقا الباحثان هنا الى طريقة شاملة لتحليل الرسم نلخصها فيما يلي:

-التحليل الشكلي

و فيها يتطرق المختص الى تحليل طبيعة خط رسم الطفل و موقع الرسم على الورقة ، حجم الرسم و هل استعمل المفحوص الألوان ام لا بهدف التعرف على مدى تناسق و انسجام الرسم بصفة عامة و التحكم في الخط و هل الرسم متوافق مع سن الطفل .

-التحليل النفسوديناميي

بالاعتماد على المقاربة التحليلية يحلل المختص مضمون او موضوع الرسم من خلال 3 نقاط رئيسية:

-يظهر الرسم بصفة عامة بشكل واضح او على العكس من ذلك تغلب عليه الفوضى .

- كيف ترتبط مكونات الرسم في موضوع منسجم و معبر او على العكس من ذلك تظهر عناصره غريبة او غير متوافقة مع بعضها البعض.

- يركز المختص هنا على الرسومات التي تعبر عن قوة أنا الطفل من خلال قدرة هذا الأخير على التعبير بصورة واضحة عن عناصر شخصيته و مشكلته في الرسم .

-المقابلة مع الطفل

يجب على المختص النفسي ان يعطي للطفل فرصة للتعبير عن رسمه من خلال مقابلة تتصف بالحرية و التلقائية.